

الدرس الثالث والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الواحد والأربعون

عن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: “ لا يُؤمن
أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لِمَا جئتُ به ” حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

الشرح..

النووي رحمه الله تعالى سَمَّى كتابه الأربعين وجمع فيه كما عرفنا إثنين وأربعين حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛
فزاد على العدد حديثين وسماه الأربعين ؛ فلم يعتبر الكسر أو العدد الزائد على الأربعين
وهو حديثان .

هذا الحديث في بيان أهمية اتباع السنة والتقيد بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن يجعل المسلم
الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة له فيما يأتي ويذر ، قال تعالى {فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجر
بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً} وقال تعالى {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة
إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} ويقول الله جل وعلا {وما آتاكم الرسول
فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} وقال {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهوائهم ومن أضل ممن
اتبع هواه بغير هدى من الله} وقال تعالى {ومن يطع الرسول فقد أطاع الله} وقال جل وعلا
{يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول} .

فهذا الحديث في هذا الباب العظيم ؛ باب طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ولزوم نهجه والتقيد بما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه وأن تكون حال الإنسان مع السنة هي الانقياد والاستسلام والمتابعة لما جاء عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الحديث بعض أهل العلم تكلم في إسناده ومنهم الحافظ بن رجب رحم الله تعالى في كتابه جامع العلوم والحكم ، وذكر ثلاث عِلَل .

ومن أهل العلم من جَوَّد إسناده ومنهم النووي رحم الله فقال هذا حديث صحيح ، وسيأتي أيضاً النقل عن الحافظ بن رجب رحم الله في تجويد إسناده الحديث

ومن حيث المعنى قوله " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " فهو حق وصحيح ، ودل عليه القرآن والسنة ؛ ومن ذلكم الآيات التي مر الإشارة إليها .

قوله " لا يؤمن أحدكم " : المراد بالإيمان هنا الإيمان الواجب ؛ فقوله " لا يؤمن أحدكم " : أي لا يؤمن الإيمان الذي أوجبه الله عليه حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به .

فالنفي هنا لكمال الإيمان الواجب ، ليس النفي لأصل الإيمان ، وليس النفي أيضاً لكمال الإيمان المستحب ؛ وهذا يفيد أن العبد ينقص إيمانه بذلك ويضعف دينه ، ويعرض نفسه للعقوبة من الله تبارك وتعالى لأنه ترك واجباً من واجبات الدين .

وعرفنا فيما سبق أن الإيمان لا يُنفى في النصوص إلا إذا ترك واجباً من واجباته أو ارتكب شيئاً من المحرمات .

قال " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " : بمعنى أن يلزم نفسه وتوجهات قلبه ورغباته ؛ أن يلزم نفسه بالسنة ، وأن يَأْطُر نفسه على السنة أطراً حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ، بمعنى أن يكون قلبه محباً لما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام مقبلاً عليه ، منشراح الصدر له ، مُسَلِّماً { فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً } ولهذا المعنى المقرر لهذا الحديث موجود في القرآن الكريم ومن ذلكم

هذه الآية الكريمة {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً} .

وقوله "حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " : الهوى المراد به ميل القلب ؛ فلا يؤمن العبد بالإيمان الواجب حتى يكون ميل قلبه إلى ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام أو تبعاً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإذا كانت نفسه تنفر أو تشمئز أو تبغض ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام فهذا دليل رقة الدين وضعف الإيمان قال "حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " بمعنى أن النفس مقبلة والصدر منشرح لتلقي ما يأتي عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه

ومما يعين في هذا الباب أن يذكر المسلم قول الله تعالى {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم} ؛ فإذا وجد في قلب المسلم قناعة بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أحرص على نفس الإنسان من الإنسان ؛ ويدل لهذا المعنى قوله تعالى {النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم} من دلائل هذه الآية ومعانيها أنه أحرص على نفسك منك ؛ ولهذا ينبغي أن يعود الإنسان نفسه أن يكون ميل قلبه تبعاً لما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا يستطيع الإنسان أن يختبر نفسه في ضوئه وأن يختبر إيمانه في ضوء هذا الحديث ؛ إذا دعت نفسه إلى معصية ونهاه رسوله صلى الله عليه وسلم عنها ، وتنازع في قلبه جاذبان : جاذب الاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام وجاذب المتابعة للهوى ؛ فمن اتبع هواه وترك ما جاءه من الهدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا ينقص إيمانه الواجب بحسب ما ارتكب من مخالفة وما وقع فيه من معصية .

وقل مثل هذا في باب المحدثات والبدع ؛ عندما يُحدث الإنسان بدعة أو تُحدث له ، ثم يقع في قلبه تجاذب بين البقاء على السنة والتمسك به ، وبين الانسياق وراء هذه البدعة واستحسانها ؛ فإذا استحسن البدعة وعمل بها نقص من إيمانه الواجب بحسب ما ارتكب من البدع والمخالفات لهدى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

والقاعدة في هذا الباب - وقد دل عليها القرآن - أن من لم يستجب للرسول عليه الصلاة والسلام فيما يدعوا إليه فهو متبع لهواه والدليل قول الله سبحانه {إن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهوائهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله} وقال جل وعلا في الآية الأخرى {إن هي إلا أسماء

سميتموها أنتم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى { أي وتركوه ، تركوا الهدى إتباعاً للظن وهو العلم الفاسد ، واتباعاً لما تهوى الأنفس ؛ وهذا القصد الفاسد ، وإذا اجتمع في الإنسان فساد العلم وفساد القصد هلك أشد الهلكة .

فالحديث “ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لِمَا جئتُ به ” حديثٌ عظيم في باب الاتباع والافتداء بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وإلزام النفس والقلب بمحبة ما جاء عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وقد صح في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين " وجاء في صحيح البخاري عن عمر أنه قال : " يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، قال: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ، قال : والله لأنت الآن أحب إليّ حتى من نفسي " .

فهذا الحديث والذي قبله فيهما دلالة على وجوب تقديم محبته عليه الصلاة والسلام على محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين .

وهذه المحبة على درجتين :

• محبة تكون في قلب المؤمن فتسوقه إلى فعل الواجب وترك المحرم ؛ وهذا القدر من المحبة قدر واجب ، وإذا نقص منه شيء نقص من إيمان العبد الواجب بحسب ما نقص من هذه المحبة الواجبة ؛ فهذه الدرجة الأولى وهي المحبة الواجبة وهي المحبة التي تُثمر فعل الواجبات وترك المحرمات .

• فإذا زادت المحبة في القلب للرسول عليه الصلاة والسلام وأثمرت متابعتة في الرغائب والمستحبات والسنن وترك ما نهى عنه عليه الصلاة والسلام وكرهه كراهة تنزيه ؛ فهذه درجة أعلى .

وفي هذا المعنى يقول الحافظ بن رجب رحم الله في كلام عظيم له في كتابه جامع العلوم والحكم يقرر فيه هذا المعنى ؛ قال رحم الله : " فالواجب على كل مؤمن أن يحب الله محبةً توجب له الإتيان بما وجب عليه منه ، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً ، وأن يكره ما كرهه الله

تعالى كراهةً توجب له الكف عما حرم عليه منه ، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت له الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلاً " .

وهذا كلام عظيم في بيان المحبة الواجبة والمحبة التي تُثمر فعل المستحبات وهي لأهل الإحسان وللمقربين من عباد الله السابقين بالخيرات .

وبهذا يُعلم أن الواجب على كل مسلم أن يحب الرسول عليه الصلاة والسلام محبةً تحب على كل مسلم تُثمر أن يكون هوى الإنسان تبعاً لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام بفعل ما أوجب الله وترك ما حرم ، أما الذي يزيد على ذلك فيثمر فعل المستحب وترك المكروه كراهة تنزيه ؛ فهذا قدرٌ زائد على المطلوب في الحديث ، ولا يشمل نفي الإيمان في الحديث “ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ” لأن نفي الإيمان لا يكون إلا في ترك واجب أو فعل محرم .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : الحديث صحَّحه النووي وعزاه إلى كتاب الحجة، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : “ يريد بصاحب كتاب الحجة الشيخ أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي الفقيه الزاهد نزيل دمشق، وكتابه هذا هو كتاب الحجة على تاركي المحجة، يتضمن ذكر أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة، وقد خرَّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وجياد الآثار ممَّا أجمع الناقلون على عدالة ناقله ، وخرَّجته الأئمة في مسانيدهم “ ،

ثم إنَّ الحافظ ابن رجب ضعفه، وبَيَّن وجوه تضعيفه، وأمَّا الحافظ ابن حجر فقد أشار في الفتح إلى ثبوته، وجعله من حديث أبي هريرة فقال: “ وأخرج البيهقي في المدخل وابن عبد البر في بيان العلم عن جماعة من التابعين، كالحسن وابن سيرين وشريح والشعبي والنخعي بأسانيد جياد ذمَّ القول بالرأي المجرد، ويجمع ذلك كله حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه “ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ” ، أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين “ .

ثانياً : نفى الإيمان في الحديث نفى للكمال الواجب، قال النووي في شرح الأربعين: “ أي: أن الشخص يجب عليه أن يعرض عمله على الكتاب والسنة، ويخالف هواه ويتبع ما جاء به صلى الله عليه وسلم وهذا نظير قوله تعالى: { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } ، فليس لأحد مع الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم أمر ولا هوى ” .

شرح الشيخ :

قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث " لا يؤمن أحدكم " : عرفنا قاعدة أهل العلم في هذا الباب أن نفى الإيمان في النصوص لا يكون إلا في ترك واجب أو فعل محرم ، أما إذا ترك المسلم مستحباً أو فعل أمراً مكروهاً كراهة تنزيه لا كراهة تحريم ؛ فإن مثل هذا لا يأتي في النصوص نفى الإيمان عنه .

ثالثاً : قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ثامناً :

“ والمعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق أنه الميل إلى خلاف الحق، كما في قوله عز وجل: { وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، وقال تعالى: { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } ، وقد يطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقاً، فيدخل فيه الميل إلى الحق وغيره، وربما استعمل بمعنى محبة الحق خاصة والانقياد إليه، وسئل صفوان بن عسال: هل سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الهوى؟ فقال: سأله أعرابي عن الرجل يحب القوم ولم يلحق بهم؟ فقال: " المرء مع من أحب " ، ولما نزل قوله عز وجل: { تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ } وتؤوي إليك من تشاء { قالت عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم: " ما أرى ربك إلا يسارع في هواك " ، وقال عمر في قصة المشاورة في أسارى بدر: " فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت " ، وهذا الحديث مما جاء استعمال الهوى فيه بمعنى المحبة المحموده “

الشرح..

هنا ذكر الحافظ بن رجب رحمه الله تعالى أن الهوى يُطلق ويُراد به الميل إلى خلاف الحق مثل قوله تعالى { وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ } المراد بالهوى خلاف الحق ، وقد يأتي الهوى في النصوص ويراد به

المحبة وميل القلب مطلقاً ، فالمراد بالهوى في هذا الحديث “ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ” هو ميل القلب ومحبة القلب ؛
فيكون معنى الحديث : لا يؤمن أحدكم حتى تكون محبة قلبه تبعاً لما جئت به أو حتى يكون ميل قلبه تبعاً لما جئت به .
وابن رجب رحمه الله تعالى ساق بعض الأحاديث الدالة على هذا المعنى ؛ وعليه فإن قول النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث “ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ” أي حتى يكون ميل قلبه أو محبة قلبه تبعاً لما جئت به .

رابعاً : ممّا يُستفاد من الحديث :

أولاً : وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به .

ثانياً : تفاوت الناس في الإيمان .

الشرح ..

تفاوت الناس في الإيمان لأن هذه الخصلة التي هي من الإيمان ؛ الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً عظيماً ، بل الشخص يعلم من نفسه في هذه الخصلة قوةً وضعفاً باختلاف الأحوال واختلاف

المؤثرات ، الشخص يرى من نفسه عندما يُوعظ ويُذكر ، وتُذكر له آيات في الاتباع والحث على السنة ، ويعرف فضل ذلك وثوابه ؛ يجد أن هذا الأمر زاد قوةً في قلبه ، وإذا شغلته الملهيّات المتنوعة والصّواد يجد أن هذا الأمر ضعف في قلبه ؛ ولهذا فالإيمان يتفاوت ، ويزيد وينقص ، ويقوى ويضعف ، وأهله ليسوا فيه سواء بما في ذلكم المحبة ، والمحبة من الإيمان . محبة الله ورسوله عليه الصّلاة والسّلام - فهي في الشخص الواحد تزيد وتنقص ، وتقوى وتضعف بحسب المؤثرات والأحوال والأسباب التي يترتب عليها إما الزيادة أو النقصان

..*

الحديث الثاني والأربعون

عن أنس رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك، يا ابن آدم! إنَّك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " .

رواه الترمذي وقال: " حديث صحيح "

الشرح..

هذا آخر الأحاديث التي جمعها الإمام النووي رحمه الله تعالى ، وعددها اثنان وأربعون حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أولها " إنما الأعمال بالنيات " وآخرها هذا الحديث القدسي الذي رواه أنس ب مالك رضي الله عنه

وهذا الحديث حديثٌ قدسي فيه ثلاث جُمَل كل واحدة منها مبدوءة بقول الرب سبحانه وتعالى " يا ابن آدم " ؛ فالخطاب هنا لبني آدم ، وهو حديثٌ قدسي جامع لأسباب مغفرة الذنوب والعق من النار ، وهو أجمع حديث في هذا الباب ، بل إن هذا الحديث جُمعت فيه أمهات أسباب المغفرة ؛ وهي أمورٌ ثلاثة :

الأول : دعاءُ الله سبحانه وتعالى مع رجاءه .

الثاني : الاستغفار مع عدم الإصرار على الذنب .

الثالث : التوحيد ؛ وهو أعظم أسباب مغفرة الذنوب وأرفعها على الإطلاق .

قال الله تعالى في هذا الحديث القدسي " يا ابن آدم إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي " : وهذا فيه الجمع بين الدعاء والرجاء {إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهبا} وقال جل وعلا {أولئك الذين يدعون يبتغون إلى رحم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه} .

والداعي يجب عليه في دعائه أن يُظهر افتقاره إلى الله وأن تقوى ثقته بالله تبارك وتعالى وأن يحسن بالله جل وعلا الظن ، وأن يدعو دعاء موقن بالإجابة لا دعاء متردد ؛ قال عليه الصلاة والسلام " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله لا يستجيب من قلب لاه " ، ودعاء الله مع وجود يقين بالإجابة ؛ هذا ناشئ عن قوة الرجاء والطمع فيما عند الله سبحانه وتعالى ، ويجب على

العبد أن يدرك مهما عظم مطلوبه وعظمت حاجته التي يطلبها من الله أن يعلم أن ربنا سبحانه وتعالى لا يتعاضمه شيء ؛ ولهذا جاء في الحديث "وليُعْظِم الرغبة فإن الله لا مكره له " : أي ليعظم الرغبة في الله وفيما عنده سبحانه وتعالى ، لا يقول هذا الطلب عظيم أو كثير أو مثل هذا الطلب قد لا يكون .. ؛ فليعظم الرغبة فإن الله لا مكره له .

وإذا ذكر المسلم في هذا الباب أن عطاء الله سبحانه وتعالى كلام ، ومنعه كلام ؛ {إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون} ولهذا يجب على المسلم أن يسأل الله جل وعلا برغبة عظيمة ورجاء بالله سبحانه وتعالى وحسن ظن به ، وأن لا يتعاضم الأمر الذي يسأله الله ؛ بل يسأل الله عز وجل ما أراد من خيري الدنيا والآخرة ومن ذلكم غفران الذنوب ، وليعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يتعاضمه شيء سئله أن يُعطيه ، ولا ذنب سئل الله فيه الغفران أن يغفره ، وهو تبارك وتعالى الجواد الكريم الوهاب المنان الغفور الرحيم جل وعلا ، وقد مر معنا الحديث القدسي حديث أبي ذر : "كلكم ضال فاستهدوني أهدكم" ، إلى أن قال : "لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته مانقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المحيط إذا غُمس في اليم" ، إذاً هذا السبب الأول من أسباب مغفرة الذنوب .

يقال " ١ بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي " : وفي هذا أن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب مهما كثرت ومهما عظمت . ونضير هذا قوله الله سبحانه وتعالى {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً} إنه هو الغفور الرحيم {والاستغفار المذكور في هذا الحديث المراد به الاستغفار الذي لا يكون معه من العبد إصرار على الذنب {ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون} بل يستغفر من الذنب وهو نادم على فعله وعلى الوقوع فيه وعازم على عدم العودة إليه ، فيكون هذا الاستغفار مستصحباً العبد معه التوبة من الذنب وعدم الإصرار عليه أو عطف النية على الاستمرار عليه .

فهذا هو السبب الأول من أسباب المغفرة ؛ وهو الدعاء مع الرجاء .

السبب الثاني : قال : "يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك " : عنان السماء " أي السحاب ، أي لو بلغت ذنوبك كثرةً إلى حدِّ السحاب ثم استغفرتني ، والمراد بالاستغفار هو الاستغفار الذي لا يكون معه إصرار على الذنب ولا يكون معه عزم

على المداومة عليه ؛ بل يكون استغفار عن ندم ، وعن عزم على عدم العودة إلى الذنب ؛ فإذا كان العبدُ مستغفراً ربه جل وعلا من ذنوبه غير مصرٍ عليها ؛ نال هذا الذي قاله الربُّ جل وعلا في هذا الحديث القدسي " غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي " ، والله سبحانه وتعالى يقبل توبة التائبين وإنابة المنيبين واستغفار المستغفرين إذا كان الاستغفار عن غير إصرار ، أما إذا لم يكن كذلك فإن الاستغفار يكون دعاء ،

أستغفر الله : يعني أسألك يا الله أن تغفر ذنبي وأن تسترني وأن تتجاوز عني ، ويكون حكمه حكم بقية الأدعية ، والدعاء عرفنا فيما سبق أن لإجابته أسباب ولعدم إجابته موانع ، لكن إذا استغفر استغفاراً مع عدم إصرار وندم وتوبة غفر الله له ما كان منه .
السبب الثالث :

قال : " يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " : وقراب الأرض أي ملء الأرض أو ما يقارب ملئها .

وقوله : " شيئاً " نكرة في سياق النفي ؛ فتفيد العموم ؛ أي لا تشرك بي أي شيء من الشرك لا صغيره ولا كبيره ؛ وهذا فيه فضل تحقيق التوحيد وأن من حقق التوحيد بدون حساب ولا عذاب ، إذا جاء يوم القيامة محققاً توحيد لا يشرك بالله شيئاً .

وتحقيق التوحيد المراد به تصفية التوحيد وتنقيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ؛ بمعنى أن يكون توحيده صافياً نقيّاً ؛ فإذا جاء الموحد بهذه الصفة محققاً توحيده دخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ،

وقد ذكر أهل العلم أن تحقيق التوحيد على ربتين :

التحقيق الواجب : وهو فعل المقتصدين .

التحقيق المستحب : وهو فعل المقربين .

وكلٌ منهما يدخل الجنة بدون حساب ولا عذاب ، وكل منهما يتناوله ما جاء في هذا الحديث " يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " وإذا كان العبد جاء يوم القيامة بتوحيد مع معاصي وآثام ؛ فإن أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، وإن عذبه فإنه لا يخلد في النار لقوله تعالى {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} والمراد بما دون ذلك أي من عصاة الموحدين ، ومن دخل النار

من عصاة الموحدين فإنه يدخل فيها لِيُطَهَّرَ ويُتَقَى من ذنوبه ولا يخلد فيها ؛ ولهذا قال أهل العلم : " إن الموحّد عندما يدخل النار لا يُلقَى فيها كما يُلقَى المشرك ، و لا يَلْقَى فيها كما يلقى المشرك ولا يبقى فيها ما يبقى المشرك " ؛ قال الله عن إلقاء المشركين في النار { يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر } ، والحديث ذكر فيه النبي عليه الصلاة والسلام أن المشرك يؤتى به يمشي على وجهه إلى أن يُلقَى في نار جهنم ، حتى قال أحدُ الصحابة : يا رسول الله أو يمشي المشرك يوم القيامة على وجهه ؟ يعني هذا أمرٌ عجيب ! يمشي مسافة على وجهه إلى أن يقع على أم رأسه في نار جهنم ؛ وهذا معنى قوله تعالى { فأمه هاوية } ، قال عليه الصلاة والسلام " أوليس الذي أمشاه على قدميه في الدنيا قادرٌ على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ "

وأيضاً الموحّد في النار لا يلقى ما يلقاه المشرك أي لا يلقى من العذاب ما يلقاه المشرك ؛ فهو دون العذاب الذي يلقاه المشرك فعذاب المشرك أشد .

والأمر الثالث : لا يبقى في النار بقاءَ المشرك ؛ فالمشرك يبقى في النار أبد الآباد ، يقول تعالى { لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها } ، وأما الموحّد فإنه يبقى في النار لوقت محدود ثم يُخرج ، كما في الحديث القدسي " أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان " فالموحّد إذا دخل النار يختلف دخوله النار عن المشرك فلا يلقى في النار كما يلقى المشرك ، و لا يلقى فيها كما يلقى المشرك ولا يبقى فيها كما يبقى المشرك .

قوله " يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئاً " وهذا فيه فضل التوحيد والبراءة من الشرك كله دقيقه وجليله ، وفيه فضل تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك ، وهذا المقام يتطلب من العبد أموراً :

أولاً : أن يعرف الشرك ليجتنبه ويكون منه على حذر ؛ فمن لا يعرف الشرك كيف يتقيه . الأمر الثاني : يتطلب منه أن يكون على خوف من الشرك وعلى خوف من الوقوع فيه قد قال عليه الصلاة والسلام " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي فسئل عنه قال الرياء " .

الأمر الثالث : أن يجاهد نفسه دائماً على البعد عنه صغيره وكبيره

الأمر الرابع : أن يدعو الله لاسيما الدعاء العظيم المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام " اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم " . فيتعوذ بالله من الشرك ما علمه وما لم يعلمه ، ما وقع منه عن علم ، وما وقع منه عن عدم علم .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : هذا الحديث هو آخر الأحاديث التي أوردها النووي رحمه الله في كتابه الأربعين، وقد زادت على الأربعين حديثين، فيكون إطلاق الأربعين عليها من تغليب اللفظ وحذف الكسر الزائد في العدد، وهو من الأحاديث القدسية التي يرويها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى .

ثانياً : الخطاب في الحديث لبني آدم، وهو مشتمل على أن من أسباب مغفرة الذنوب دعاء الله ورجاءه مغفرة الذنوب والاستغفار منها والإخلاص لله والسلامة من الشرك، ومعنى مغفرة الذنوب سترها عن الخلق والتجاوز عنها، فلا يُعاقب عليها.

الشرح..

هذا الحديث جمع أعظم أسباب مغفرة الذنوب واجتمع فيه أمور ثلاثة تلخص فيما يلي:

أن من أسباب مغفرة الذنوب دعاء الله ورجاءه مغفرة الذنوب والاستغفار منها والإخلاص لله تعالى والسلامة من الشرك ؛ فتجتمع هذه الأمور التي ذكرت في الحديث في هذه الجملة المختصرة ، وهذه أعظم أسباب مغفرة الذنوب .

ثالثاً : قوله: “ يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي ”

، دعاء العبد ربه مغفرة ذنوبه ورجاؤه ذلك منه دون يأس مع التوبة من الذنوب يحصل به من الله المغفرة ولو عظمت الذنوب وكثرت وتكررت، ولهذا قال: “ على ما كان منك ولا أبالي ” ونظير هذا قول الله عز وجل: { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } .

الشرح..

هذا السبب الأول من أسباب مغفرة الذنوب دَلَّ عليه قول الله تعالى " يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي " : والمعنى الذي تدل عليه هذه الجملة أن دعاء العبد ربه مغفرة ذنوبه ورجاءه ذلك منه دون يأْس مع التوبة من الذنوب يحصل به من الله المغفرة ؛

فالدعاء الذي ورد هنا دعاء الله مع رجاءه أي دعاءه غفران الذنوب مع الرجاء وأن يكون ذلك عن توبة وعدم إصرار على الذنوب .

[رابعاً : قوله: “ يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك “ ، لو كثرت ذنوب العبد حتى بلغت عنان السماء، أي: بلغت السماء أو ما دون ذلك كالسحاب أو ما يبلغه بصر الناظر إلى فوق، ثم حصل من العبد الاستغفار مع التوبة من جميع الذنوب، فإنَّ الله تعالى يغفر تلك الذنوب ويتجاوز عنها، والتوبة تكون بالإقلاع من الذنب والندم على ما فات والعزيمة في المستقبل على ألا يعود إليه، ومع هذه الثلاثة، فإن كان الذنب في حقِّ الله عزَّ وجلَّ وفيه كفَّارة، أتى بالكفارة، وإن كان في حق للآدميين، أدَّى حقوقهم إليهم أو تحلَّ لهم منها] .

الشرح..

هذا السبب الثاني من أسباب المغفرة لقوله تبارك وتعالى "يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء " أي لو كثرت الذنوب وعظمت وتعددت وحصل من العبد الاستغفار مع التوبة والندم والعزم على عدم العودة إليه ؛ فإن الله عز وجل يغفر له على ما كان منه ولا يبالي .

ودلت نصوص أخرى أن الأمر الذي تاب منه العبد لو كان يتعلق بحقوق الآخرين فلا بد من إعادة الحق لأهله أو طلب المسامحة والعفو من أصحابه .

خامساً : قوله: “ يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة “ ، الشرك بالله عزَّ وجلَّ هو الذنب الذي لا يغفره الله، وكلُّ ذنب دون الشرك

فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عفا عن صاحبه ولم يعذبه، وإن شاء عذَّبه وأدخله النار، ولكنه لا يُخلَّد فيها خلود الكفار، بل لا بدَّ أن يخرج منها ويدخل الجنة، كما قال الله عزَّ وجلَّ { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } في آيتين من سورة النساء، وفي هذا الحديث بيان أنَّ الذنوب ولو بلغت في الكثرة ما بلغت، فإنَّ الله يتجاوز عنها، بشرط كون العبد مخلصاً لعبادته لله سليماً من الإشراك به.

الشرح..

هذا السبب الثالث من أسباب مغفرة الذنوب وهو أعظمها ، بل إن التوحيد إذا انتفى من العبد ومات على ذلك فلا مطمع له أبداً في مغفرة الذنوب ولا مطمع له في رحمة الله ، بل ليس له في الآخرة إلا النار مخلداً فيها أبد الآباد

كما قال الله { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } وهذا يدلنا دلالة عظيمة على فضيلة التوحيد ومكانته ، وأنه أعظم أسباب مغفرة الذنوب ، ويدلنا أيضاً على خطورة الشرك وأن من مات مشركاً ليس له إلا النار ، بل ليس بين المشرك وبين النار إلا أن يموت كما في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام "من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار" فالحديث يدل على أن النار قريبة جداً من المشرك فليس بينه وبين أن يدخل النار إلا أن تفارق روحه جسده . وإذا فارقت روحه جسده وهو مشرك بالله انتهى أمره ولا مطمع له في مغفرة الله ؛ ولهذا المشرك يطلب أن يُعاد للدنيا ليعمل صالحاً غير الذي يعمل ، يطلب أن يخفف عنه العذاب ، يطلب أن يُقضى عليه فيموت ؛ فلا يحصل شيئاً من ذلك ولا ينال شيئاً من مغفرة الله تبارك وتعالى .

[سادساً : مِمَّا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ :

أولاً : سعة فضل الله عزَّ وجلَّ ومغفرة ذنوب عباده.

ثانياً : من أسباب مغفرة الذنوب دعاء الله ورجاؤه من غير يأس.

ثالثاً : فضل الاستغفار مع التوبة، وأنَّ الله يغفر للمستغفر ذنوبه ولو بلغت في الكثرة ما بلغت.

لأن الاستغفار بدون توبة دعاء وللدعاء لإجابته شروط ولعدم إجابته موانع ، لكن إذا كان مع الاستغفار توبة أي استغفر وهو تائب غير مصر بل نادم على فعله للذنوب وعازم أن لا يعود عليها فهذا شأنه كما جاء في الحديث يغفر له ذنوبه

رابعاً : أنَّ الشرك بالله هو الذنب الذي لا يُغفر، وأنَّ ما سواه تحت مشيئة الله.

خامساً : فضل الإخلاص، وأنَّ الله يُكفِّر به الذنوب.

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

* * *